المربية

[illegible]

بقلم الأستاذ نصري عطا الله

لم يكن بالحجرة سوى الفتاتين ، وقد أطفئت الأنوار وعم الظلام سوى بصيص من الضوء كان ينبعث من الفراشين . وهدأت أنفاس الفتاتين حتى كان يظن أنهما نائمتان

وسرى همس متقطع رقيق من أحد الفراشين ، وكان المتحدث هو الفتاة التي بلغت الثانية عشرة

فسألتها أختها التي كانت تكبرها بسنة فاتنة « ماذا تقولين ؟ »

قالت : إني جد مسرورة لأنك لا تزالين مستيقظة فإن لدي ما أود أن أقوله لك

ولم يكن هناك جواب بالألفاظ ، وإنما حفيف من الفراش الآخر ، وكانت الفتاة الكبرى قد جلست منتظرة وعيناها تتألقان في الضوء الواهن

قالت الصغرى : انظري هنا فهذا ما أريد أن أخبرك به ولكن قبل كل شيء هل لحظت أحمر

بقفازين عتيقين

وكان يفكر في حياته طوال السنوات الخمس الماضية وما انحدر إليه من تدهور وإسفاف فيحس كأنه يفكر في أمر شخص غريب لا يكاد يمت إليه إلا بأوهى الصلات ، وانصرف تفكيره كله إلى المستقبل الذي يريد أن يحقق في أيامه ما يعوضه من الماضي الضائع

والتقيا بعد ذلك مرات وكان يحدثها في بساطته القديمة المحببة عما يأمل ويتمنى فتجيبه بأن أمانيه وآماله هي ما يخفق به قلبها وتحلم به ليل نهار

وتزوجا بعد أمد قصير ...

وبرت أمينة بوعدها وعهودها ، وعاونا على الحياة الطيبة وعاشا معا كطفلين ساذجين فرحين بالحياة ، واستطاع رأفت أن يجد عملا جديدا مربحا ومريحا ، وما لبثت أمينة أن استقالت من عملها لتتوفر على شؤون منزلها ، وبعد عام من زواجهما رزقا فتاة أطلقا عليها الاسم الذي طاف بخيال أمينة منذ أن شعرت بأعراض الحمل وهو « إنصاف »

نصري عطا الله

شيئا يثير الضحك في سلوك الآنسة منى ؟

فقالت الكبرى بعد قليل من الصمت « نعم لقد لحظت شيئا ، ولكنني لا أدري ما هو ، فهي أقل تدقيقا مما كانت ، فمنذ يومين وأنا لا أؤدي التمرينات البيانوية ، ومع ذلك لم توجه لي أي لوم . ولست أدري ماذا حدث ، ولكنها فيما يبدو أصبحت لا تعنى بنا ، فهي تقعد منفردة بنفسها ولا تشاركنا في ألعابنا كما كانت تفعل من قبل

فأجابت الصغرى : أحسبها حزينة ، وهي تحاول إخفاء حزنها ، وهي لا تعزف على البيان الآن »

ومرت فترة سكوت ، واستأنفت بعدها الفتاة الكبرى الحديث قائلة « لقد ذكرت أن لديك شيئا تودين أن تفضي إلي به »

فقالت الصغرى : نعم ، ولكن عليك أن تحتفظي به لنفسك ولا تقولي عنه كلمة واحدة لوالدتنا أو لصديقتك لولي »

فأجابت الكبرى في غضب « إني بطبيعة الحال لا أفعل ذلك . فاسترسلي في حديثك

قالت الصغرى :

« بعد أن أوينا إلى الفراش أدركت فجأة أني لم أقل للآنسة منى عمي مساء ، فلم أتردد في لبس حذائي واسترقت الخطى إلى حجرتها قاصدة مفاجأتها ، ولذا فتحت الباب بهدوء وظننت لحظة أنها غير موجودة بالحجرة ، ورغم ضوء الحجرة لم أستطع رؤيتها ، وفجأة تملكتني الدهشة ، فقد سمعت نحيبا ورأيتها راقدة فوق فراشها بملابسها وقد أخفت رأسها بين الوسائد ، وكانت تبكي بكاء شديدا جعلني أستشعر الألم ، ولكنها لم تلحظني ، فتسللت من الحجرة وأقفلت الباب برفق وهون ولبثت لحظة في خارج الحجرة لأني كدت أعجز عن المشي ، وظللت أسمع نحيبها من خلال الباب ، ثم عدت أدراجي »

ثم لاذت الفتاتان بالصمت لحظة ، ثم قالت الكبرى متنهدة « يالها من مسكينة ! »

وعادتا كلتاهما إلى الصمت

وواصلت الصغرى الحديث قائلة : « إني في دهشة من أمرها ولست أدري ما الذي أبكاها ، ولم تحدث مشاجرة أخيرا لأن الوالدة قد كفت عن تعنيفها كما كانت تفعل دائما ، وإني واثقة من أننا لم نتعبها فما سبب بكائها ؟ »

فقالت الكبرى « أحسبني أستطيع أن أحزر ذلك »

فقالت الصغرى :

حسن ، اذكري ما عندك إذا !

فترددت الكبرى في الرد ، ولكنها قالت أخيرا « أعتقد أنها تحب »

ففزعت الفتاة الصغرى وقالت « تحب ؟

فأجابت الكبرى : « بطبيعة الحال أقصده ! وهو عجيب ، فى خلال السنوات الثلاث التى قضاها معنا لم يشاركنا فى نزهتنا إلا منذ شهرين أو ثلاثة أشهر ، والآن لا يفوته أن يصحبنا يوما من الأيام ، وهو لم يكد يلحظنا إلا بعد قدوم الآنسة مان ، وهو الآن ما ينفك يحوم حولنا ، وفى كل مرة نخرج نصادفه فى الميدان أو فى الحدائق أو فى أى مكان آخر تصحبنا إليه الآنسة مان ، وأنا واثقة أنك لحظت ذلك ؟ »

فأجابت الصغرى « نعم ، لحظته بالضرورة ولكنى ظننت ... »

ولم تتم جملتها

فقالت أختها : « إنى لم أشأ أن أشغل بالى بالموضوع فى أول الأمر ، ولكنى بعد حين أدركت أنه يخفى سببا »

وبعد صمت طويل أخذت الفتاتان تقلبان فيه الأمر على وجوهه ، وكانت الصغرى هى التى بدأت بالخروج من الصمت وعاودت الحديث قائلة :

« ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم يبكى ؟ إنه مستهام حزين ، وأنا دائما أظن أنه مما يسر الإنسان أن يكون محبوبا ؟ »

فقالت الكبرى فى لين ورقة : « إنى أرى ذلك ، ولا أستطيع أن أتبين الأمر » ثم أرسلت هذه الكلمات فى نبرة يخالطها النوم « يا لها من مسكينة هذه الآنسة مان ! »

وانتهى حديثهما فى تلك الليلة

ولم تشيرا إلى هذا الحديث فى الصباح ، ولكن كل واحدة منهما كانت تعلم أن أفكار الأخرى كثيرة الدوران حول هذا الموضوع ، ولم تتعمد إحداهما النظر فى عين الأخرى لتستوضح ذلك ، ولكنهما كانتا تتبادلان النظرات حينما تقع عيناهما على المربية ، وكانتا على الطعام تراقبان ابن عمهما أوتو كأنه شخص غريب ، ولم توجها إليه حديثا ، ولكنهما كانتا تختلسان النظر إليه وتحاولان أن تكتشفا هل هنالك تفاهم خفى بينه وبين الآنسة مان . ولم تحفلا بأسباب التسلية لأنهما كانتا لا تفكران فى شئ سوى هذا اللغز الهام . وفى المساء سألت إحداهما الأخرى وهى تحاول أن تتظاهر بعدم الاكتراث :

« ألا تلاحظين شيئا جديدا اليوم ؟ »

فأجابت أختها باختصار « كلا »

والواقع أنهما كانتا تتحاشيان الخوض فى الموضوع ، وظل الحال على هذا المنوال عدة أيام ، وكانت الفتاتان لا تكفان عن الملاحظة فى صمت وقد استولى عليهما القلق واشتغال البال . ولكنهما كانتا تشعران بأنهما قريبتان من كشف سر عجيب

وأخيرا لحظت الفتاة الصغرى فى أثناء

العشاء أن المربية أشارت إلى أوتو إشارة لا يكاد يدركها أحد ، وأنه أحنى رأسه ردا على هذه الإشارة ، فانتفضت من الانفعال وركلت أختها ركلة خفيفة تحت غطاء المائدة ، فنظرت الكبرى إليها مستفسرة فردت عليها بنظرة ذات معنى . وظلت الفتاتان على أحر من الجمر حتى انتهى تناول الطعام . وفى عقب انتهائه قالت المربية للفتاتين :

« اذهبا إلى حجرة الدراسة وابحثا عن عمل تؤديانه فإنى أشعر بصداع وسأستلقى على الفراش نصف ساعة »

وفى اللحظة التى وجدت الفتاتان أنهما فى عزلة انفجرت الصغرى قائلة : « سترين إن أوتو ذاهب إلى غرفتها ! »

فقالت الكبرى « بالطبع ، ومن أجل ذلك أرسلتنا إلى هنا »

فقالت أختها : « علينا أن نتسمع خارج الباب »

فأجابت الكبرى « ولكن افرضى أن أحداً يجئ ... »

فسألتها أختها « من ؟ »

فأجابتها قائلة : « الوالدة »

فقالت الصغرى متفزعة « سيكون ذلك أمراً فظيعا »

فأشارت أختها قائلة « راقبى الممر وأنا أتسمع »

فأظهرت الصغرى استياءها وقالت :

« ولكنك فى هذه الحالة لا تخبرينى بكل شئ »

فقالت أختها « لا تخافى »

فقالت الصغرى : « أأنت جادة ؟ »

فقالت الكبرى : « أقسم لك أنى جادة وعليك أن تسعلى إذا سمعت صوت قادم »

وانتظرتا فى الممر وقلباهما يخفقان من الانفعال ، فماذا حدث ؟ سمعت وقع أقدام فتسللتا إلى حجرة الدراسة المظلمة ، وقد كان القادم أوتو نفسه ، وقد قصد حجرة الآنسة مل وأغلق الباب من ورائه . وتسللت الفتاة الكبرى إلى الموضع الذى اختارته وتسمعت من ثقب الباب وهى لا تكاد تجرؤ على التنفس . وأخذت الأخرى تطل إليها نظرات تنم على الحسد ، ودفعها حب الاستطلاع إلى المضى حثيثا نحو الباب ؛ ولكن أختها صدت لها وأشارت إليها فى غضب لترجع إلى مكانها وتراقب فى آخر الممر . وظلتا منتظرتين بضع دقائق بدت للفتاة الصغرى كأنها الأبدية . وكانت تشعر بحمى القلق تتمشى فى بدنها وكأنها كانت واقفة على مثل جمر الغضى . وبصعوبة استطاعت أن تكفكف غرب دموعها لأن أختها كانت تسمع كل شئ ، وأخيراً سمعت

صوتاً فاستولى عليها الخوف وسعلت؛ وهربت الفتاتان إلى حجرة الدراسة . ومرت لحظة قبل أن يواتيهما النفس لتتحدثا ، وقالت الصغرى غاضبة :

« حدثيني إذن عن كل ماحدث »

فبدت علائم الحيرة على وجه الفتاة الكبرى وقالت كأنها تخاطب نفسها :

« إنى لا أفهم »

فقالت الصغرى : « ماذا ؟ »

فأجابتها أختها « إنه شيء يتجاوز المألوف »

فقالت الصغرى غاضبة : « ماذا ؟ ماذا ؟ »

فبدأت الكبرى مجهوداً وهى تقول :

« لقد كان شيئاً يتجاوز المألوف ويختلف كل الاختلاف عما كنت أتوقعه ، وأظن أنه حينما دخل الحجرة أراد أن يطوقها بذراعيه أو أن يقبلها لأنها قالت له : دع ذلك الآن لأن لدى شيئاً خطيراً أريد أن أخبرك به . ولم أستطع أن أرى شيئاً لأن المفتاح كان معترضاً ، ولكني كنت أستطيع السمع جيداً ، وسألها أوتو فى نبرة لم أسمعها منه قط قبل ذلك قائلا : ما الخبر ؟ وأنت يا أختى تعرفين كيف يتحدث فى العادة بصوت عال وفى فحة ، ولكنى واثقة من أنه كان غاضباً ، ولا بد أنها لحظت أنه يخدعها لأن كل ما قالته هو : أظن أنك تعرف ما فيه الكفاية ؟ فقال : أبداً . فقالت فى صوت حزين : إذا كان الأمر كذلك فلماذا تناءيت عنى ؟ ففى خلال أسبوع لم أكد أسمع منك كلمة ، وأراك تتجنبنى جهد طاقتك ، وقد ابتعدت عن الفتاتين وأمسكت عن لقائنا فى الحديقة ، فهل نبذت تجاه الاهتمام بى والعناية بأمرى ؟ آه إنك تعلم جيداً لماذا تتراجع إلى الوراء هكذا ...

فظل صامتاً لحظة ثم قال : إنك لا ريب تعرفين اقتراب ميعاد الامتحان ، وليس لدى وقت أضيعه ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟

وأخذت تبكى وقالت له فى رقة وهى تنشج : قل الحق يا أوتو ؛ ما الذى صنعت حتى تعاملنى هذه المعاملة ؟ إنى لم أطالبك بشيء ، ولكن يلزم أن نتحدث فى صراحة ، وملامحك تظهر لى بوضوح أنك تعلم كل شيء عن ... »

وأخذت الفتاة تنتفض ولم تستطع أن تتم جملتها

فقربت منها أختها وسألتها :

كل شيء عماذا ؟

فقالت : كل شيء عن الطفل !

فقاطعتها الصغرى قائلة : طفلهما ! طفل! هذا مستحيل

فقالت الكبرى : هذا ما قالته

فقالت أختها : لا يمكن أن تكونى قد أحسنت السمع

فأجابت الكبرى : ولكنى سمعت جيداً ، وإنى متأكدة مما سمعت ، وقد أعاد هو قائلا « طفلنا » وبعد هنيهة استرسلت تقول : وماذا نصنع الآن ؟ وحينئذ ...

قالت الصغرى : وحينئذ ماذا ؟

فأجابت أختها : حينئذ سعلت فابتعدت عن الباب

فارتبكت الصغرى ارتباكا شديداً ، والتبس عليها الأمر ثم قالت :

ولكن لا يمكن أن يكون لها طفل ، وأين يكون هذا الطفل ؟

فقالت أختها : لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع أكثر مما تعرفين

فقالت الصغرى : ربما كان هذا الطفل فى منزلها ، ووالدتنا بطبيعة الحال لا تسمح لها بإحضاره إلى هنا ، ولا بد أن هذا هو سبب حزنها

وأجابت الكبرى : آه . هذا كلام فارغ إنها لم تعرف أونو إذن !

وذهب بهما التفكير كل مذهب ، وعادت الصغرى تقول : طفل ! هذا أمر مستحيل . كيف يمكن أن يكون لها طفل؟ إنها غير متزوجة ، ولا أطفال لغير المتزوجين

فقالت أختها : ربما كانت متزوجة

وردت الصغرى قائلة : لا تكونى غبية ، إنها لم تتزوج أونو

فقالت الكبرى : حسن ، إذن ... ؟

وأخذت كل منهما تحدق فى الأخرى

وقالت إحداهن فى حزن : إنها مسكينة آنستنا مان

وكان يبدو دائماً أنهما تعودان إلى ترديد هذه الكلمة ، وكأنها كانت تأوه عطف ، ولكن شعلة الاستطلاع كانت تعود بعد ذلك إلى التوهج

وقالت الصغرى : أتظنينها بنتا أو ابنا ؟

وأجابتها أختها : كيف أستطيع علم ذلك .

فقالت الصغرى : وماذا تقولين إذا سألتها عن ذلك فى تلطف ولباقة ؟

فزجرتها أختها قائلة : أوه ! التزمى الصمت !

فسألت الصغرى : ولم ذلك ؟ إنها تعاملنا بكثير من الرعاية والعناية

فقالت أختها : وما فائدة ذلك ؟ إنهم يخفون عنا أمثال هذه الأشياء ، وإذا تحدثوا عنها وجئنا إلى الحجرة ، فإنهم يسكتون عن الحديث ويشرعون فى التكلم معنا بكلام فارغ كأننا لانزال أطفالا ، وذلك بالرغم من أننى فى الثالثة عشرة من عمرى ، فما فائدة سؤالها لتخدعنا وتكذبنا ؟

فقالت الصغرى : ولكنى أريد أن أعرف

فأجابتها أختها : وأنا كذلك تواقة إلى

المرفقة، والذي يصادق هو أن أوتو ادعى أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك، وحينما يكون للإنسان طفل لا بد له أن يعلم ذلك، كما لا بد له أن يعلم أن له أباً وأماً

فقال المصري: أوه! إنه كان يدعى ذلك، ومن عادته الكذب!

فأجابت الكبرى: ولكنه لا يكذب في مثل هذه الأمور إلا حينما يدهمها كشفنا

واعترض حديثهما مجيء المربيـــة. وتظاهرا بالجد في العمل، ولم يغب عنهما ملاحظة احمرار جبينها وما دل عليه صوتها من جيشان العاطفـــة، وجلستا في هدوء وصمت وكانتا تنظران إليها نظرات احترام، ولم تكفا عن التفكير في أن لها طفلا وأنها حزينة من أجل ذلك، وبعثه ألم بهما الحـزن.

وعند تناول الغداء في اليوم التالي علمتا بهذه الأنباء المزعجة، وهي أن أوتو سيغادر المنزل، وقد أخبر عنـه أن عليه أن يبـذل جهداً كبيراً قبيل الدخول في الامتحان، وأنه لا يجد في المنزل الهدوء الكافي لذلك، وأنه سيقيم في مسكن غير هذا مدة الشهرين القادمين.

وأثار ذلك مشاعر الفتاتين، وأدركتا أن لرحيل أوتو مهما يكن من ألوان الصـلة بحديث اليوم السابق، وعرفتا بالغريزة أن هذا الرحيل هو فرار الجبان. ولما جاء أوتو ليودعهما أبى منهما إعراضاً وتجهما، ورغم ذلك رافقتاه وديعـــه للآنسة مان، وقد صافحته في هدوء ولكن شفتيها اختلجتا

وبدلت ذلك من أحوال الفتاتين في تلك الأيام، فقـد قل ضحكـــهما، وأصبحتا لا تستشعران السرور في شيء، وبدا عليهما الحزن، وكانتا تتنقلان في أرجاء المنزل وقد احتواهما القلق، وغلب عليهما سوء الظن بمن كان حولهما من الكبار، واعتقدتا أن وراء أبسـط الكلمات التي تسمعانها خدعة وأنهـا تنطوي على أكذوبة، وكانتـا في رقابتهما الدائمة كالظلال الخاطفة تتسمعان خلف الأبواب وتحاولان النفاذ من الشبكة التي تحجب عنهما السر الخفي، أو على الأقل أن تظفرا خلال خيوطهـا بنظرة إلى عالم الواقع، وقد فقـدتا يقين الطفولة وغفلتها الناعمة، وعلاوة على ذلك فقـد كانتا على الدوام تنتظران كشفاً جديداً وتخشيان أن يفوتهما ذلك، وقد علمهما المخـادعة جو الخداع والغش الذي كانتا تعيشان فيـه، وكانتا كلمـا اقترب منهما والداهما تظاهرتا بالانهماك في العمـل، وزاد ما بينهما قرباً تحالفهمـا في مقاومـة عالم الكبـار، وكانتا حيناً يملؤهما شعورهما بالجهل والعجز يتملكهما دائم حب الملاطفة والملاينـة

ويجعلهما تتمانقان . وفى بعض الأحيان كانت تنهمل دموعهما . وهكذا انتقلت حياتهما إلى مرحلة خطيرة بدون سبب ظاهر

وبين متاعبهما الكثيرة كان هناك شىء أسوأ وقعاً فى نفسيهما من كل شىء آخر ، وهدمهما لباقيهما دون أن تتبادلا الأفكار إلى عقدهما العزم على أن تجنبا الآنسة مان التاعب جهد الطاقة لما تعانيه من حزن ، فجدتا فى التحصيل وتعاونتا فى الدروس والتزمتا الهدوء وأحسنتا التصرف وحاولتا أن تسبقا الآنسة مان إلى رغباتها ، ولكن كان يبدو لهما أن المربية لم تلحظ ذلك ، وكان هذا أشد ما يثير ألمهما . ولقد كانت غير مكترثة ، وحينما كانت تخاطبها إحداهما كانت تجفل كالذى استطير نومه ، وكان يبدو أن نظرتها لا ترتد إليهما إلا بعد أن تسير مسافات شاسعة ، وكانت تقضى ساعات وهى جالسة سابحة فى الأحلام ، وكانت الفتاتان تسيران على أطراف أصابعهما خشية إزعاجها لأنهما كانتا تتخيلانها مفكرة فى طفلها الغائب ، وقد جعلتهما أنوثتهما المستيقظة أشد عطفاً مما كانتا قبل على المربية التى ألانت لهما كنفها فى تلك الآونة . والآنسة مان التى كانت داعية المرح والتى كانت فى بعض الأحيان يغلب عليها القليل من الصلف قد أصبحت أكثر تفكيرا وأشد رعاية وتبصرا . وشعرت الفتاتان بأن أعمالها كلها تنم على حزن خفى ، ولم تبصراها باكية ولكن جفونها كانت قريحة ، وكان من الواضح أنها تريد أن تحتفظ بمتاعبها فلا تفضى بها إلى أحد ، وكان يحزنهما ويحز فى نفسيهما عجزهما عن مساعدتها

وفى ذات يوم اتجهت المربية نحو النافذة لتمسح دموع عينيها فتشجعت الفتاة الصغرى وأمسكت بيدها قائلة « إنك جد محزونة يا مس مان ، وليس هناك خطأ من ناحيتنا فهل الأمر كذلك ؟ »

فنظرت الآنسة مان إلى الفتاة نظرة عطف وربتت على شعرها وقالت :

« كلا يا عزيزتى فليس هناك أى خطأ من ناحيتك » وقبلت الفتاة فى جبينها

وهكذا واصلت الفتاتان الرقابة ، ودخلت إحداهما حجرة الجلوس على غير انتظار وسمعت كلمة أو كلمتين لم تقصد أن تسمعهما ، وغير والداها موضوع الحديث ؛ ولكنها كانت قد سمعت ما يكفى لجعلها تفكر

كانت الوالدة تقول « نعم لقد استرعى نظرى نفس الشىء وسأتحدث إليها فى ذلك »

وفى أول الأمر وضعت الفتاة الصغرى القلنسوة على رأسها وانطلقت لتستشير أختها فقالت

« حول ماذا تظنين هذه الضجة المثارة »

ولكنهما لحظتا عند الغداء كيف كان والدها ووالدتها يوجهان النظرات الفاحصة إلى المربية ، وكيف كانا بعد ذلك يتبادلان النظرات ذوات المعانى ، وبعد الغداء قالت الوالدة للآنسة مان :

« هل تسمحين بالحضور إلى حجرتى ؟ إنى أود أن أتحدث إليك »

فأهتاج ذلك الفتاتين لتوقعهما حدوث شئ ، وقد ألفتا استراق السمع وسارتا لاتخجلان منه ، وكان مناط تفكيرهما هو علم ما خبئ عنهما ، وبادرتا إلى الوقوف خلف الباب بعد دخول الآنسة مان مباشرة وتسمعتا ، ولكنهما لم تسمعا سوى همسات من الحادثة ، فهل يظلان فى جهلهما ؟ ولكن لم يلبث أن ارتفع أحد الصوتين ، وقالت الأم غاضبة

« أتحسبين أننا كنا عميا لا نلحظ حالتك ؟ إن هذا يلقى ضوءاً على تصورك لواجباتك كمربية ، وإنى أرتجف كلما فكرت فى أننى عهدت بتربية بناتى لمثل هاتين اليدين ، ولا نزاع فى أنك أهملتهما إهمالا شنيعا »

وبدا أن المربية اعترضت على ذلك ولكنها كانت تتحدث فى هدوء فلم تستطع الفتاتان سماع حديثها

وقالت أمهما « تكلمى ، تكلمى ! كل امرأة خليعة تجد أعذارا ، وامرأة مثلك تقدم نفسها لأول قادم دون أن تفكر فى العواقب ، والله يعين ! ومن الكثير أن تصير فاجرة مثلك مربية ، وما أحسبك تخدعين نفسك فتحسبى أننى أسمح بإقامتك فى المنزل بعد ذلك ؟ »

فارتجفت الفتاتان وهما تصغيان ، ولم تستطيعا أن تفهما فهما كاملا ، ولكن اللهجة التى كانت تتحدث بها أمهما بدت لهما فظيعة مستنكرة ، وكان جواب الآنسة مان البكاء والتشنج ، فانحدرت الدموع من عيون الفتاتين ، وازداد غضب الأم حدة وتأججا فقالت :

« أكل ما تستطيعينه هو البكاء والنحيب ! إن دموعك لا تؤثر فى ، وليس فى نفسى شئ من العطف على أمثالك ، وليس من شأنى أن أعنى بما سيصيبك وأنت، من غير شك تعرفين أين تلتمسين المساعدة فهذا شأنك الخاص ، وكل ما أعلمه هو أنك لن تمكثى فى منزلى يوما آخر » .

وكان البكاء والنحيب لايزالان جواب الآنسة مان الوحيد ، ولم تسمعا من قبل انتحابا على هذه الطريقة . وكان شعورهما يوحى إليهما أن من يبكى مثل هذا البكاء المر لا يمكن أن يكون مذنباً ، وانتظرت والدتهما قليلا فى صمت ثم قالت بحدة :

« هذا هو كل ما أريد أن أقوله لك ، فاجمعى متاعك بعد ظهر اليوم واحضرى إلى فى صباح الغد لتأخذى مرتبك ، وتستطيعين الآن أن تنصرفى » .

وفرت الفتاتان إلى حجرتهما ، فماذا عكن أن يكون قد حدث ؟ وما معنى هذه العاصفة الفاجئة ؟ وفى هذه اللمة المظلمة من أمرهما أخذ يتبين لهما ضوء الحقيقة واهياً ، ولأول مرة كان شعورهما شعور الثائر على والديهما .

قالت الكبرى « ألم يكن من القسوة البالغة أن تخاطبها والدتى بمثل هذا الأسلوب؟ »

وأخاف هذا النقد الصريح الفتاة الصغرى بعض الخوف فقالت متعثرة :

« ولكن ... ولكن ... نحن لا نعرف ما صنعت » .

فقالت الكبرى « إنى واثقة من أنه لم يقع خطأ ، والآنسة مان لا يمكن أن تخطىء ، والوالدة لا تعرفها كما نعرفها نحن »

فقالت الصغرى « ألم تكن طريقتها فى البكاء فظيعة ؟ لقد تركت فى نفسى شعوراً سيئاً » .

فقالت الكبرى : « نعم كانت فظيعة ، ولكن الأسلوب الذى كانت تصيح به والدتى كان مستنكراً معيباً ! »

ودقت الأرض برجليها وفاضت الدموع من عينيها .

وفى هذه اللحظة جاءت الآنسة مان وقد بدا عليها الإعياء وخاطبتهما قائلة : لدى أعمال كثيرة بعد ظهر اليوم ، وإنى أعرف أنكما ستحسنان السلوك إذا تركتكما لنفسيكما ، وسنمضى المساء معاً .

واستدارت وغادرت الحجرة دون أن تلحظ نظرات الفتاتين البائسة .

وقالت الكبرى لأختها : أرأيت احمرار جفنيها ؟ إنى لا أفهم لماذا قست عليها والدتى كل هذه القسوة ؟

وأجابت الصغرى : مسكينة آنستنا مان !

وهكذا عاد التحسر لحالة الآنسة مان فى صوت يعترضه تدفق الدموع ، وجاءت الوالدة تسألهما أتريدان أن يذهبا معها للنزهة

فأجابتا : لا نريد اليوم يا والدتنا .

والواقع أنهما كانتا خائفتين من والدتهما وكانتا غاضبتين لأنها لم تخبرهما بأنها ستطرد الآنسة مان ، وكان الأنسب لحالتيهما النفسية تركهما لتخلوا بنفسيهما ، وكانتا تضطربان فى نواحى الحجرة كالعصافير الحبيسة فى القفص وقد ضرستهما بأنيابه ووطأتهما بمنسمه جو الريب والصمت ، وأرادتا أن تعرفا هل تستطيعان أن تذهبا إلى الآنسة مان ، وتسألاها عن جلية الخبر ، وتخبراه أنهما

ترِيان أن والدتهما قد أسرفت فى الإساءة إليها ، ولكنهما كانتا تخشيان مضايقتها ، وفضلا عن ذلك فإنهما كانتا خجلتين إذ كيف يتسنى لهما الحديث عن أمر كل ما تعلمانه عنه مستمد من الأحاديث المسترقة ؟ وكان عليهما أن تقضيا فترة ما بعد الظهر الطويلة المملة فى خلوة بنفسيهما مهمومتين حزينتين تبكيان من الحين إلى الحين ، مستعيدتين فى ذاكرتيهما ما سمعتاه خلال الباب المقفل وغضب والدتهما القاسى ، ونحيب الآنسة مان اليائس .

وفى المساء جاءت المربية لتراهما ولكنها اكتفت بتحيتهما وبينما كانت تغادر الحجرة تشوقت الفتاتان إلى الخروج من الصمت ولكنهما لم تستطيعا أن تنطقا بكلمة . واستدارت الآنسة مان عند الباب كأنما دعاها تطلعهما الصامت وكانت عيناها تلتمعان ببريق الدامعة الثائرة ، وعانقت الفتاتين اللتين فاضت دموعهما وعلا بكاؤهما ، وأعادت الآنسة مان تقبيلهما وأسرعت فى الانصراف

وكان من الواضح للفتاتين أن هذا هو الوداع الأخير

فبكت إحداهما قائلة « لن نراها بعد الآن »

وقالت الأخرى « إنى أعرف ، فعند عودتنا من المدرسة غداً تكون قد ذهبت »

فقالت الصغرى « ربما استطعنا زيارتها بعد حين من الزمن وسترينا طفلها »

فقالت الكبرى « نعم ، إنها ستظل دائما عزيزة علينا »

وعادت الصغرى تقول « مسكينة آنستنا مان ! »

وبدا لهما أن هذه الكلمة الحزينة تلوح لهما بما يضمره لهما الغيب

وقالت الكبرى « لا أستطيع أن أتصور كيف نستطيع البقاء بدونها ! »

فأجابت أختها « إنى لا أطيق قبول مربية بعدها »

ووافقتها الكبرى قائلة « ولا أنا كذلك »

وقالت الصغرى « لن نجد مثيلا للآنسة مان ، وفضلا عن ذلك ... »

ولم تجترئ على إتمام جملتها ، وشعورهما الباطن بالأنوثة جعلهما تحسان نوعا من الاحترام للآنسة مان منذ عرفتا أن لها طفلا ، وكان هذا على الدوام فى فكرهما وقد أثر فيهما تأثيرا بالغا

قالت الكبرى « أقول ... ؟ »

فقالت أختها « تقولين ماذا ؟ »

فقالت الكبرى « لقد خطرت لى فكرة ، ألا نستطيع أن نصنع صنيعا جميلا للآنسة مان قبل أن تنصرف لنريها تعلقنا بها ونعرفها أننا لسنا مثل الوالدة ؟ وهل تنضمين إلى

فى ذلك ؟ »

فأجابت أختها « بكل تأكيد ! »

فقالت الكبرى « تعرفين شدة حبها الورود البيض ، فلنذهب فى صباح الغد ونشترى وردات بيضاء قبل ذهابنا إلى المدرسة ونضعها فى حجرتها »

فسألت الصغرى « ولكن متى نفعل ذلك ؟ »

فقالت أختها « بعد الرجوع من المدرسة »

فقالت الصغرى « لا فائدة من ذلك ، إنها ستكون قد ذهبت . اسمعى ، سأتسلل فى باكورة الصباح قبل الفطور وأحضرها إلى هنا ونحملها بعد ذلك إليها »

فقالت الكبرى « حسن جدا ، علينا أن نستيقظ مبكرتين »

ورجعت كل منهما إلى حصيلتها من النقود ، وسرهما أنهما ستتمكنان من إظهار مدى حبهما للآنسة مان

وفى باكورة الصباح طرقتا باب الآنسة مان والورود فى أيديهما ، ولم تتلقيا ردا ، فظنتا أنها لا تزال نائمة فنظرتا من ثقب الباب ، ولكن الحجرة كانت خالية ولم ينم أحد فى الفراش ، ووجدتا على المنضدة رسالتين ، فاعترتهما الدهشة . فماذا حدث ؟

قالت الفتاة الكبرى « سأذهب توا إلى الوالدة »

وبدون أى أثر للخوف وفى تحد ظاهر حيبت والدتها بهذه الكلمات !

« أين الآنسة مان ؟ »

فقالت أمها « أظنها فى حجرتها »

فقالت الفتاة « ليس بحجرتها أحد وهى لم تذهب إلى فراشها ، ولا بد أنها غادرت المنزل فى الليلة الأخيرة ؛ فلماذا لم تقولى لنا شيئا عن هذا الموضوع ؟ »

ولم تكد الوالدة تلحظ لهجة التحدى ، حتى اصفر وجهها وقصدت إلى زوجها ، وذهب الزوج إلى حجرة الآنسة مان

ومكث بها هنيهة . وفى أثناء ذلك كانت الفتاتان تنظران إلى والدتهما نظرات غضب متجهم ، وبدا أنها عاجزة عن مواجهة هذه النظرات

وعاد والدهما أدراجه من حجرة الآنسة مان وفى يده خطاب مفتوح ، وكان هو كذلك مهتاج العاطفة . وانسحب الوالدان إلى حجرتهما وتبادلا الحديث بصوت منخفض ، وفى هذه المرة خافت الفتاتان من محاولة استراق السمع فإنهما لم تريا والدهما من قبل فى مثل هذا المنظر

ولما خرجت والدتهما من الحجرة رأتاها تبكى ، فأرادتا أن تسألاها ولكنها قالت لهما فى حدة « إذهبا إلى مدرستكما ، إنكما ستتأخران »

ولم تجدا بدا من الذهاب ، وظلتا ساعات في حجرة الدراسة دون أن تصغيا لكلمة واحدة ، ثم انطلقتا إلى المنزل ، وهناك بدا أن فكرة رهيبة قد استولت على عقول من في المنزل جميعا ، حتى الخدم كان منظرهم نجيبا ، وجاءت الوالدة لاستقبالهما وأخذت تتحدث إليهما بكلمات عبثت بتلاوتها

« إنكما لن تريا الآنسة مان بعد ذلك إنها ... » ولم تكمل الجملة فإن ما بدا على الفتاتين من مظاهر الغضب والتهديد جعل الوالدة لا تستطيع الكذب عليهما ، فبكتهما واحتمت بحجرتها

وفي عصر ذلك اليوم ظهر أوتو في المنزل وكان أحد الخطابين موجها إليه وقد استدعى للحضور ، وكان هو كذلك قلقا ممتقع الوجه ولم يوجه إليه أحد كلاما ، وتحاشاه كل إنسان ، وأبصر الفتاتين جالستين في إحدى زوايا الحجرة مهمومتين فذهب إليهما

فنظرتا إليه في فزع وصاحتا به « لا تقترب منا ! »

فأخذ يتمشى هنا وهناك لحظة ثم اختفى ولم يتحدث أحد إلى الفتاتين ، ولم تتجاذبا هما أطراف الحديث ، وكانتا تتنقلان في المنزل من حجرة إلى أخرى بغير غرض ، وتنظر كل واحدة منهما إلى وجه الأخرى الذي بللته الدموع حينا بتقاطع طريقاهما ، وعرفتا في هذه الآونة كل شيء ، وعلمتا أنهما قد خدعتا ، وعرفتا إلى أي حد تصل الضعة بالناس ، وفقدتا حبهما لوالديهما ، وأصبحتا لا تثقان بالوالد ولا بالوالدة ، ووثقتا من أنهما لن تثقا بأي إنسان بعد ذلك ، وثقل على كاهليهما الضعيفين الصغيرين حمل الحياة ، وتركتا خلفهما طفولتهما السعيدة التي لم تعرف الهم ، وانتظرتهما المخاوف المجهولة . وكان من وراء تفكيرهما إدراك الفتى الكامل لكل ما حدث ؛ ولكنهما كانتا تصارعان محتملاته المروعة ، وقربت ما بينهما العزلة ولكنها كانت صحبة خرساء لأنهما لم تستطيعا تحطيم حاجز الصمت . وانقطع ما بينهما وبين الكبار انقطاعا تاما . ولم يستطع أحد الدنو منهما لأن منافذ روحيهما قد أغلقت وربما امتد ذلك بضع سنوات قادمة . وكانتا في حرب مع كل من كان حولهما لأنهما في يوم وجيز كبرتا وشبتا

وفي أعقاب المساء عندما كانتا تنفردان في حجرة النوم كان يعاودهما خوف الأطفال من العزلة ، ويغشاهما الفزع من المرأة الميتة ، وتلم بهما رهبة المحتملات المرعبة ، وكان البرد شديدا قارسا وقد أذهلهما الاضطراب الذي شغل المنزل عن جهاز التدفئة ، فلاذتا بفراش واحد وتضامتا لتتبادلا التشجيع وتستشعرا الدفء ، وكانتا لا تزالان عاجزتين عن بحث

أسباب نعيمها ، ولكن أخيراً في تلك الآونة وجدت عاطفة الفتاة الصغيرة المكبوتة متنفساً في عاصفة من الدموع . والكبرى كذلك أخذتها نوبة من البكاء والنحيب ، وهكذا كانت كل واحدة منهما تبكي وتنشج وهي بين ذراعي الأخرى ، ولم يكن بكاؤهما على فقد الآنسة مان أو على الجفوة التي وقعت بينهما وبين والديهما ؛ فلقد هزهما توقع ما قد يصيبهما في هذه الدنيا المجهولة التي أبصرتا حقائقها لأول مرة في هذا اليوم ، وقد نفرتا من الحياة التي نشأتا في ظلالها ، تلك الحياة التي بدت لهما مثل غابة ملأى بالصور التي تبث الرعب وتثير الحذر ؛ ولا بد لهما من عبور هذه الغابة ، ولكن هذا الشعور بالهم والحزن أخذ يستحيل شيئاً فشيئاً شعوراً وهمياً ؛ وقلت حدة بكائهما وأصبحتا لا تبكيان إلا في فترات متباعدة ، وهدأ تنفسهما ، وتملكهما الهدوء والصفاء واستغرقتا في النوم

علي أدهم

مختارات من الأدب الفرنسي

شعر ونثر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصير وأبلغ القصائد المختارة المنقولة من روائع كتاب فرنسا وشعرائها

وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد